ـ هذه السفينة لا شأن لها بما أنتَ عليه. الحكومة هناك في روما طلبتْ منّا أبعادَك عن أرضها. ونحن، كما تعلم، نخاف على رزقنا أن ينتهي بسبب راكبٍ واحدٍ لا نعرفه أبداً.

قلتُ له وأنا أحاول إمساكَ بكائي لئلاّ تنزلق الدموعُ وتفضح ما في روحي من وجه رهيب:

ـ خذ اقرأ يا سيدي، هذا جواز سفري. ما زال أمامي أكثرُ من نصف سنة قبل أن ينتهي السماحُ لي بالعيش في ناپولي.. هُم بأنفسهم أعطوني هذا الحق، فكيف تفسّر طردهم وأنا لا ذنب لي أبداً في أي شيء؟

وقف الوقتُ في تلك الساعة.. لم تتحرك عقاربُها مطلقاً.. كانت وابيلارد على وشك أن ترسو في الاسكندرية.. لكنني، لا أدري إنْ كنت أحلم أو كنت أغرق في الوهم، سمعتُ قبطانها يصرخ بصوتٍ جارحٍ قويٍ عنيد وهو يشير إلى أعالي البحار:

ـ سنعود إلى ناپولي.

قلتُ له:

ـ وما الفائدة يا سيدي؟ الشرطة هناك لن تسمح لي.

لكنّ قبطان وابيلارد ما يزال يردد:

ـ دعونا، وبسرعة، نَعُدْ إلى هناك.

فوراً رأيتُ الباخرة العملاقة تكسر رأس رحلتها بزاويةٍ قطرُها لا يوازي غيرَ كرنفالٍ عظيم، وهي ترجع نحو البلاد التي خذلتني. ماء البحر كثيف جداً. الأمواج تصعد صوب ركاب السفينة. ثمة من يضحك.. ثمة من يسأل عن السبب. ثمة من أراد قتلي (لأنني السبب الوحيد في هذه الرحلة العسيرة)..

ماء البحر كثيف جداً، والأمواج ما تزال تقفز وتضرب سطحَ الحيتان وسقفَ السفينة. عدنا إلى ناپولي في وقت قصير. هناك أنزلوني وحدي. كانت الشرطة قد اطمأنتْ إلى غيابي، وجواز سفري يحمل الختمَ الأحمر الذي يقول: «غير مرغوب فيه».

وبرغم ذلك تركوني أدخل المدينة. ذلك أنهم ـ دون ريب ـ يعلمون تماماً أنني ما إن أدخل ناپولي مرةً ثانيةً حتى أستيقظ من حلمي هذا وينتهي كلُّ شيء.

بغداد

رجل في فنجان

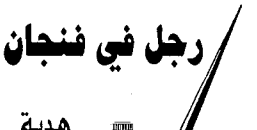

هدية حسين

نعم شربتُ القهوة. قد لا أتذكر في أيّ وقت: صباحاً أم عند الظهيرة، أولَ المساء أم قاب قوسين من انتصاف الليل. غير أني شربتها، لا شيء يجعلني أشك في ذلك.

لكنّ ما يدهشني حقاً، هو وجود فنجانين على الطاولة. فإذا كنتُ قد شربتُ فنجاناً فمَنْ يا ترى شرب الثاني، ولم يَطْرق بابي أحدٌ منذ أسبوع؟

ولكي أكون أكثر دقة، سأقول إنّ بوّاب العمارة طرق الباب مرتين: الأولى عندما طلب أجرةَ الحراسة، والثانية حين سلّمني قائمةَ المبالغ المستحقة للصيانة. ثم ما الذي يجعل امرأة ـ مثلي ـ تدعو بوّاباً إلى شقتها؟

صحيح أنني امرأة تعاني الوحدة منذ عدة سنوات، وطالما انتابني شعورٌ غامضٌ يستفزّ رغبتي في دعوة شخص ما ـ أيّ شخص ـ لمجرد الإحساس بأنني ما زلتُ على قيد الحياة. لكنّ جذوري الأرستقراطية لم تنحدر إلى حدّ دعوة بوّاب العمارة!

ومع ذلك يراودني شعورٌ، يتأرجح بين الحقيقة والوهم، بأنني ربما ـ ولخطإٍ مّا ـ قد انسقتُ الى دردشةٍ فَرَضَتْها طبيعةُ التعامل مع سكّان العمارة وطبيعة البوّاب نفسه، ومن ثم وجدتُ من اللائق دعوتَه إلى احتساء القهوة؛ فهو رجل ودود طيبُ القلب يعاني الوحشة مثلي. وبالتالي فإنّ الناس الذين يشعرون بالعزلة هم الأكثر شعوراً بالتآلف والانسجام؛ وإلاّ، فكيف أفسّر كلَّ ما أعرفه عن أسرته ـ إن لم أكن قد جالسته ـ: زوجته المريضة بالبلهارسيا، أطفاله الأربعة، أمه الضريرة، أخته التي اختفت في ظروف غامضة..؟

ياه.. مالي أفكّر بالبوّاب تحديداً؟ لِمَ لا يكون رجلاً آخر؟ رجلاً يليق بي كامرأة ما يزال يجري في عروقها زهوُ زمنٍ فاحشِ الثراء، متخمٍ بالمغامرات، برغم ما آلت إليه الحالُ من الفقدان والهرم؟

أجل!

قد يكون رجلاً آخر، ويمكن أن تكون امرأة... امرأة؟ كيف لم أفكر بذلك؟ نعم، لا بد أن تكون امرأة، بدليل أنّ الفنجانين مقلوبان، وهذه عادة تختصّ بها النساءُ دون الرجال لقراءة الطالع. مَنْ تكون اذن؟ الشقة المقابلة مقفلةٌ منذ سنين، أصحابها خارج البلد، ويبدو أنّهم لم يفكّروا في العودة. بقيت الشقتان الأرضيتان: واحدة تسكنها طبيبةٌ نسائيةٌ مع زوجها المقعد ـ وهذه ليست لي بها علاقة تصل حدّ تبادل الزيارات ـ؛ والثانية تشغلها أرملةٌ وأمٌّ لخمسة أطفال لا تجد وقتاً كافياً لزيارة أحد، وقد حاولتُ مرةً دَعْوتَها فجعلتني أندم على اللحظة التي استوقفتُها فيها عند مدخل العمارة ودعوتُها لزيارتي؛ فقد تحولتِ الشقةُ إلى ساحةٍ للعراك ولعبة كرة القدم، وأُفرغتِ الثلاجةُ من جميع محتوياتها.

لقد حيّرني حقاً أمرُ الفنجان الآخر. ولكي أخفف الضغط على أعصابي لمعرفة مَنْ شاركني احتساء القهوة، تشاغلتُ بقراءة الخطوط المتشابكة في قعر الفنجانين: أشكال غريبة لطيور تحلّق في فضاءات واسعة، كلاب أو ثعالب، وجوه مشوهة، طرقٌ متعرجة مغلقة النهايات وأخرى مفتوحة على فراغ، أرقام، عيون، خطوط غير واضحة. وبدأتُ فعلاً أتسلّى بنسج الحكايات ومن ثم بتصديقها: الفضاء المفتوح يعني زوال الغمة؛ الرقم ثلاثة يعني زوالَ الغمة بعد ثلاثة أيام، أو ثلاثة شهور؛ الكلاب أعداء يتربّصون، وفي مثل حالتي لا بد أن يكونوا لصوصاً يتحينون الفرصةَ لسرقة امرأةٍ وحيدة، امرأةٍ لا تتذكر مَنْ شاركَها احتساء القهوة؛ و...

تحركتْ أكرةُ الباب بطريقةٍ مألوفة. ومع ذلك تلبّسني رعبٌ حقيقي. وضعتُ فنجان القهوة في الصحن والتفتُّ صوب الباب.

كان جسدي يرتعش حين انتصبتْ أمامي قامةُ رجلٍ أسمر اللون مربوع القامة. ألقى تحيةَ المساء بطريقةٍ آليةٍ من دون أن ينظر إليّ. وقبل أن يدخل غرفةَ النوم طلب مني فنجان قهوة!

بغداد

قالَها... ومات...

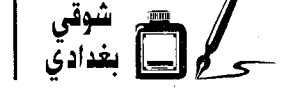

شوقي بغدادي

ما كدتُ أسمع الخبر حتى قَفَزَتْ إلى ذهني على الفور تلك الملاحظةُ التي كان يكرّرها أمامي في الآونة الأخيرة: «هل تصدّق أنّه من الممكن أن يموت الإنسان لمجرّد أن يتلفّظ بجُملةٍ معيّنة فتُنْقَل عنه ويُثْبت أنّه قائلها؟!» فأقول له ممازحاً: «وما هي هذه الجملة الفظيعة التي يمكن أن تكون سبباً في موت قائلها؟!» فيلتفت نحوي مجيباً وهو يغتصب ابتسامةً لا تُسعفه: «كيف تسألني أن أقول لك ما هي تلك الجملة؟... أنت تريدني أن أموت إذن؟». وما أكاد أتفرّس في وجهه المكتنز الطيّب الملامح وهو يجاوبني بهذا الشكل حتى يتملكني نوعٌ من الفزع الغامض حين أكتشف أنه جادّ في حديثه كلّ الجدّ، وأنْ لا مجال للممازحة والدعابة معه في تلك اللحظة.

حَدَثَ هذا أكثر من مرّة. وبالرغم من أنني كنتُ له صديقاً مُقَرَّباً، فقد كان يبدو لي مؤخراً إنساناً غامضاً، متوجساً، حَذِراً حتى مني أنا شخصياً.

لقد تغيّر صديقي كثيراً في الأشهر الأخيرة، وصار ميّالاً إلى الصمت والانطواء على النفس، مسكوناً بحالة من الكآبة طالما استفسرتُه عنها بلا جدوى. ما الذي كان يمنعه من مكاشفتي وأنا رفيق صباه، وابن قريته؟ لقد كان على ما يرام طوال السنوات العشر التي مرّتْ علينا بعد انتقالنا إلى العاصمة؛ كان دائماً ذلك الريفيُّ الطيّب النقيّ السريرة، النظيف القلب واليد بالرغم من تقلّبه في أكثر من منصب حسّاس. فهل كان يُخفي عني سرّاً ما مُخجلاً أو مفزعاً طوال تلك المدّة؟ لقد كان تغيّره واضحاً. نكون وحدنا مثلاً في سيّارته الخاصّة الفاخرة. هو يقود، وأنا إلى جانبه أتأمّل الطريق صامتاً، وهو مثلي صامتٌ مشغولٌ بعالمه الداخلي، ثمّ فجأةً - ومن دون أن يلتفت - يقول ملاحظته تلك وقد اكتسب وجهُهُ أماراتٍ من الشرود والتفكير العميق المشوب - كما يبدو - بخواطر مثيرةٍ للريبة والقلق تجعله شاحب اللون بعض الشيء: «كلمة واحدة... جملة واحدة يمكن أن تجلب الموتَ لصاحبها!. هل هذا معقول؟!»...

كان يقولها وكأنّه يحدّث نفسه، وكانت ملامحه تتغيّر تماماً عندئذ، وحين ألحّ عليه أن يَشْرح لي قصدَه على وجه الدقّة كان يتهرّب من الإجابة ويغيّر الموضوع فوراً أو يعمد إلى الصمت. وهكذا تعوّدْتُ ألاّ أُصِرَّ عليه، وبالتالي ألا أَحْمِل ملاحظته تلك على محمل الجدّ.. إنّه يتوهم أشياء لا وجود لها.. هذا كلّ ما في الأمر.. أو هو يمزح على طريقته، وعليّ ألاّ أعبأ بما يقول.

ولكنني دفعةً واحدة، وكمن يسقط عليه وَحْيٌ خطير مفاجئ، عدتُ إلى نفسي بعد سماعي خبر حادث السيّارة الذي أودى بحياة صديقي كي أستعيد تفاصيل ذكرياتي معه، وأناقشَ المسألة من خلالها فأتساءل: ترى هل كان مصرعه نتيجةً لاصطدام عاديّ، أم أنّها حادثة مدبّرة بذكاء عقاباً له على عجزه عن كتمان تلك الجملة اللعينة التي كان يعتقد أنها ستودي به؟

*

بقي الأمر بالنسبة إليّ سرّاً، حتى بعد فراغنا من تشييع الجنازة الضخمة التي نُظّمتْ له، وحَضَرَها عددٌ لا يُستهان به من المسؤولين. سألت أولاده عن تفاصيل الحادثة فلم يستطع أحدٌ أن يؤكّد شكوكي. قالوا إنّ كلّ ما يعرفونه هو أنّ أباهم كان يسوق سيّارته «المرسيدس - الشبح» عائداً إلى بيته بعد زيارةٍ قام بها إلى أحد معارفه في الضواحي ولم يكن معه أحد. وعند مدخل المدينة حوالى الساعة الثانية بعد منتصف الليل اصطدمت السيّارة بعمودٍ للكهرباء صدمةً قويّة كانت كافيةً لحدوث ما حدث.

قلتُ لهم: «ولكنّ الوالد كان سائقاً ماهراً، ولم يكن يعمد إلى السرعة إلاّ في حالات نادرة وفي الشوارع العريضة